إعجاز القرآن في ضرب الأمثال
دراسة تطبيقية على الآية الأربعين من سورة النور

د. أحمد عبد الكريم شوكه الكبيسي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة الشارقة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد: فإنَّ الحديث عن الإعجاز القرآني يعني الحديث عن القرآن الكريم، والحديث عن القرآن يعني الحديث عن هذا النَّص القرآني المُعجِز وما ينفرد به من خصائص على مستوى نظم الخطاب الذي جاء فيه، فهو قمَّة البلاغة والبيان الذي أعجز البلغاء والفصحاء، بل أعجز كلَّ قوم بلسانهم.

ومن خلال قوله جلَّ وعلا: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

تأتي هذه الدِّراسة للوقوف على دقة إعجاز مفردات هذه الآية، والغوص في مكنونها من حيث تصوير المعنى ومدى جماليته، والذي تكلم عنه القرآن بأعالي الإعجاز اللغوي والبياني مصحوبًا برفعة ضرب الأمثال .

وقد سعيت في العرض الذي يتضمنه هذا البحث إلى إيراد الآية كلها بما يتخللها من قراءاتٍ وتحليلٍ للَّفظ، وأنواع المَثَل قبل الإشارة لها من جانب الإعجاز اللغوي والبياني؛ لما لهما من ارتباط وثيق في فهم الآية بكلٍّ وضوح، حتى ندرك بعد ذلك طبيعة العَلاقة بين الآية القرآنية والإعجاز، ممَّا يمكننا الاستفادة من مفردات القرآن نفسه ومنحنياته البيانيَّة لفهم مضامينه ومعانيه، والذي من شأنهما أن يمنحانا الدَّلالات المقصودة. كل هذا – إن شاء الله - وفق منهجية تحليلية استقرائيَّة لأوجه الإعجاز اللغوي والبياني على حدٍّ سواء في تصوير المعنى.

علمًا أنَّ هذا البحث لا يختصُّ بالإعجاز العلمي، كون هذا الأخير قد دُرس من قبل باحثين سابقين جزاهم الله خيرًا، وإن كنتُ قد تطرَّقتُ – أحيانًا- إلى ندرة الاكتشافات العلميَّة الحديثة؛ رغبة في تعضيد الموضوع وتقريبه أكثر إلى القارئ الكريم؛ لما يحتله من موقع وأثر حاسم في إقناع المشكِّكين وضعفاء العقول، ومن ثمَّ التطلع إلى استقرار الإيمان وتثبيت اليقين واستنهاض الهِمم وتوجيه الطاقات نحو الإعجاز القرآني ومدى ارتباطه بميادين الحياة.

.. وفي ضوء ما تقدَّم يأتي البحث وقد انقسم في أصوله على مبحثين يتقدَّمُهما مقدِّمةٌ ويقفوهما خاتمةٌ.

خطة البحث: ويحتوي مبحثين، يتخللهما مطالب، ومن ثمَّ محاور ..

- **المبحث الأول**: وعقدته للتعرُّف على الآية ومناسبتها، والنَّظر إلى النَّص نظرة عامَّة، إذ تطرّقتُ فيه إلى بيان موقع النَّص ومقاصده الكليَّة، وسياقه، وضرب المَثَل، ووجه التشبيه.. مستشهدًا بأقوال علماء التفسير واللغة والبلاغة، معتمدًا في ذلك كتب الاختصاص.. وقد جاء في مطلبين:

المطلب الأول: تضمَّن سبب النزول، وتناسب الآية، وبيان موقع النَّص ومقاصده الكليَّة.

المطلب الثاني: شمل النَّظر إلى النَّص نظرة كليَّة عامَّة، ومن ثمَّ التطرُّق إلى سياق الآية وضرب المَثل.

المبحث الثاني: وخصّصته للتعرُّف على آراء المفسرين واللغويين في تحليلاتهم وتفسيراتهم للآية، والوقوف على خصوصيَّات ذلك التحليل ودلالاته، وعَلاقة هذه الآية بما قبلها، فضلاً عن عَلاقتها بالغرض العام .. متبعًا في هذا أيضًا أقوال علماء التفسير واللغة والنَّحو والبلاغة.

.. هذا ويهدف البحث في كلِّ وقفةٍ من وقفاته إلى إبراز بعض جوانب الإعجاز البياني في القرآن والكشف عن بعض أسراره البلاغية، وإلى البحث عن مقصود النَّصِّ القرآني عامَّة، أو أقرب مقصود إليه وذلك لإبراز حقيقة القرآن وأولويَّته ونظرته المستقبليَّة؛ إذ إنَّني أوقن بأنَّ القرآن – بقراءاته– ليس قاصرًا على الفصيح والأفصح أو البلاغة أو تذوق الأساليب وإبراز ما فيها من جمال وتعبير وتنظيم؛ لأنَّ ذلك يبُعد القرآن عن حقيقته وعن دائرته العلميَّة، ويلحقه بموضوعات الفنون، بل كلّ لفظة من ألفاظه لا بد أن يكون لها أثر في خدمة الإنسان والمجتمع وفق ما أراده الله تعالى؛ ليتحقق بذلك استخلاف الإنسان وسعادته.

وإنَّ مثل هذه الموضوعات ستجلي الكثير عن حقيقة القرآن وصلته بالإعجاز من خلال إنعام النَّظر في آيات الله جلَّ وعلا ومُلَح دقائق البيان .. والتي تعد المصدر الأساس في التدبر والتفكر في خلق الله عن يقين.

المبحث الأوَّل

التعرُّف على الآية ومناسبتها

ويحتوي مطلبين ..

المطلب الأول: سبب نزول الآية وقراءاتها، وعَلاقتها بما قبلها

ويتضمَّن المحاور الآتية:

* **المحور الأوَّل:** سبب النزول: قال مقاتل: (نزلت هذه الآية في عتبة بن ربيعة بن أميَّة كان يلتمس الدِّين في الجاهليَّة، ويلبس المسوح فلمَّا جاء الإسلام كفرَ).[1] وعلى رأي الأكثرية بأنَّها عامَّة في جميع الكفار، قال البغوي: «والأكثرون على أنَّه عام في جميع الكفار».[2]

* **المحور الثاني: القراءات:** وعن الأوجه الاقرائيَّة لهذه الآية وحجيِّتها، فقد اختلف القرَّاء فيما يأتي ..

- **قرأ البزي عن ابن كثير المكي:** (سحابُ) بغير تنوين، (ظلمات) بالجرِّ على الإضافة، ووافقه ابن محيصن المكي.[3]

حجية القراءة: الرَّفع على البدل. والحجة لمن أضاف أنه جعل (ظلمات) غير (سحاب) فأضافه كما تقول: ماءُ مطرٍ.[4]

---

(1) الكشف والبيان (للثعلبي): 7/ 111، تفسير البغوي: 6/ 53، البحر المحيط: 6/ 423، تفسير النسفي: 3/ 216، روح المعاني : 18/ 81 اللباب في علوم الكتاب: 14/ 402.

(2) تفسير البغوي: 6/ 53 .

(3) ينظر: السبعة في القراءات: 457، التيسير في القراءات السبع: 109، النشر في القراءات العشر: 2/ 372، تحبير التيسير في القراءات العشر: 482، اتحاف فضلاء البشر: 412.

(4) ينظر: الحجة في القراءات السبَّع (لابن خالويه): 263.

وكما تقول: سحابةُ رحمةٍ، وسحابُ مطرٍ إذا ارتفع في الوقت الذي يكون فيه الرَّحمة والمطر، وكذلك شبه إذا ارتفع في وقت كون هذه الظلمات بارتفاعه في وقت الرَّحمة.[1]

قال الشوكاني: «ووجه الإضافة أنَّ السَّحاب يرتفع وقت هذه الظلمات فأضيف إليها لهذه الملابسة».[2]

- وقرأ قنبل عن ابن كثير المكي: (سحابٌ) بالتنوين، (ظلماتٍ) بالجر مكسورة التاء.[3]

حجية القراءة: رفع (سحاب) على الابتداء، وخفض (ظلمات) بدلاً من قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾.[4] والتقدير: أو كظلمات ظلمات.[5]

- وقرأ الحسن البصري: بسكون اللام من قوله تعالى : (ظلْمات) .[6]
- وقرأ بقيَّة القراء الأربعة عشر: بالتنوين فيهما والرَّفع.[7]

وحجتهم: رفع السَّحاب بالابتداء والخبر من فوقه، وظلمات تبيين لقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾.[8]

(1) ينظر: حجة القراءات (لابن زنجلة) : 502 .

(2) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير : 4/ 58 .

(3) ينظر: السبعة في القراءات: 457، التيسير: 109، النشر: 2/ 372، تحبير التيسير: 482، اتحاف فضلاء البشر: 412 .

(4) ينظر: الحجة في القراءات السبع (لابن خالويه): 263 .

(5) حجة القراءات (لابن زنجلة): 502.

(6) ينظر: اتحاف فضلاء البشر: 412.

(7) ينظر: المصدر نفسه.

(8) الحجة في القراءات السبع (لابن خالويه): 263.

وقال ابن الجزري: «بالرَّفع على أنه خبر مبتدأ محذوف».[1]

﴿سَحَابٌ﴾ رفع لأنه خبر الصِّفة. و﴿ظُلُمَاتٌ﴾ رفع؛ لأنه خبر ابتداء محذوف تقديره: هذه ظلمات بعضها فوق بعض.[2]

- وقرأ سفيان بن حسين[3]: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ بفتح الواو (أوَ).[4]

وحجته: جعلها واو عطف دخلت عليها همزة الاستفهام التي هي لتقرير التشبيه الخالي عن محض الاستفهام.[5]

«وقيل هي ﴿أَوْ﴾ التي في قراءة الجمهور، وفتحت الواو للمجاورة كما كسرت الدَّال لها في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة:2] على بعض القراءات[6]».[7]

---

(1) النشر في القراءات العشر: 2/ 372.

(2) ينظر: حجة القراءات (لابن زنجلة): 502 .

(3) وهو: «سفيان بن حسين بن حسن الواسطي، الحافظ، ثقة في غير الزهري، استشهد به البخاري في الصَّحيح وروى له في القراءة خلف الإمام، وفي الأدب، وروى له مسلم في مقدمة كتابه، ووقع له نحو ثلاث مائة حديث ... توفي سنة نيف وخمسين ومائة من الهجرة». ينظر: تهذيب الكمال: 11/ 141، سير أعلام النبلاء: 7/ 302، تقريب التهذيب: 244.

(4) المحرر الوجيز: 4/ 231، البحر المحيط: 6/ 424، الدر المصون في علم الكتاب المكنون: 11/ 107، اللباب في علوم الكتاب: 4/ 346

(5) ينظر: البحر المحيط: 6/ 424، الدر المصون في علم الكتاب المكنون: 11/ 107، اللباب: 14/ 403، روح المعاني: 18 / 182.

(6) وهي قراءة زيد بن علي، والحسن البصري، ورؤبة. ينظر: الكشف والبيان (للثعلبي): 1/ 109، الإنصاف في مسائل الخلاف: 1/ 125، المحرّر الوجيز: 1/ 59، تفسير القرآن العظيم: 1/ 128، التحرير والتنوير: 1/ 408، إتحاف فضلاء البشر: 162.

(7) روح المعاني: 13/ 460.

* **المحور الثالث**: الوقف والابتداء: إنَّ الوقف على قوله تعالى: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾ غير تام؛ وذلك لأنَّ قوله تعالى: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞ﴾ صلة للموج. بينما الوقف على قوله تعالى: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞ﴾ فحسنٌ، ثمَّ بعد ذلك تبتدئ: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ على معنى هي ظلمات بعضها فوق بعض. قاله ابن الأنباري.[1]

وروي عن أهل مكة أنهم قرأوا ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ على معنى أو كظلمات ظلمات بعضها فوق بعض فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على السَّحاب.[2] وأوضح ابو عمرو الدَّاني الآية أكثر بقراءاتها فذكر الوقف على:

- ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [البقر:202]: بأنه كافٍ وإن كان بعده حرف العطف: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾؛ لأنه رأس آية.

- ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾: بأنه صالح.

- ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞ﴾: وقف كافي، وهذا لمن قرأ ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ بالرَّفع.

- ومن قرأ (ظلمات) بالجرِّ بدلاً من ﴿كَظُلُمَاتٍ﴾ – وهي رواية قنبل-: فإنه لم يقف على شيء منها.

- ومن قرأ (سحابُ ظلماتٍ) بالإضافة – وهي رواية البزي عن ابن كثير المكي، وقراءة ابن محيصن-: لم يقف على ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾.

- ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾: فإنه وقف تامٌّ.

- ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾: وقف كافي.[3]

(1) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 12/ 485.

(2) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 12/ 485.

(3) ينظر: المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء: 70.

* **المحور الرَّابع**: عَلاقة الآية بما قبلها:

مثَّل الله جلَّ وعلا لأعمال الذين كفروا بتمثيلين، أحدهما شبَّه أعمالهم بسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، وثانيهما شبهها بظلمات في بحر لجيٍّ.

ومناسبتهما لَمَا قبلهما أنَّ الله جلَّ وعلا ذكر- فيما تقدَّم من آيات- حال المؤمنين الذين نوَّر قلوبهم وعقولهم بنوره، الذي تجلَّى في السَّموات والأرض، وتبلور في بيوته، التي أذن أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، فعبدوا ربهم مخلصين له الدِّين، وعمَروا بيوته بالذكر والتسبيح، لا يشغلهم عن إقام الصَّلاة، وإيتاء الزكاة شاغل ولا يصرفهم عن ذلك صارف، يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب، يعلقون رجاءهم بثواب الله الذي وعدهم.

ويحقق الله تعالى وعده، فيجزيهم ثواب أعمالهم مضاعفًا، ويزيدهم من فضله ما لم يكن يخطر لهم ببال؛ وذلك قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾، ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[النور:36-38].

أمَّا التشبيه الأوَّل بالسَّراب فيكون لمن سكنَ الجزيرة العربيَّة، أو جاورها. وفي هذا التشبيه يتجلى سطح الصحراء العربية المنبسط والخداع الوهمي للسّراب .. ذلك الخداع، الذي لا يُدركه إلا أبناء البيئة الصَّحراويَّة.

وأمَّا تشبيهها بالظلمات الكثيفة فيكون لمن لا يعرف شيئًا عن البيئة الصَّحراوية وأسرارها؛ لأنه يترجم- على عكس الأوَّل- عن صورة، لا عَلاقة لها بالوسط الجغرافي للقرآن الكريم، بل لا عَلاقة لها بالمستوى العقلي، أو المعارف البحرية في العصر الجاهلي؛ وإنما هي في مجموعها منتزعة من بعض البلدان الشمالية التي يغشاها الضباب الكثيف، وتحيط بها مياه البحار والمحيطات من كلِّ جانب. هذا ما يشير إليه تشبيه الأعمال بالظلمات الكثيفة في أعماق البحار نتيجة لتراكب الأمواج والسَّحاب. وذلك

يستلزم من القائل أن يكون على معرفة علمية بالظواهر الخاصة بقاع البحار، وهي معرفة، لم تُتَحْ للبشرية، إلا بعد معرفة جغرافية المحيطات، ودراسة البصريات الطبيعيَّة.[1]

ولَمَّا كان هذا الأمر مهولاً، أشار إلى هوله وتصويره بقوله: ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ أي من البحر والموجين والسَّحاب ﴿بَعْضُهَا﴾. ولَمَّا كان المراد استغراق الجهة، لم يثبت الجار فقال: ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾ متراكمة، فلذلك يبعد كلَّ البعد أن ينفذ فيها بصر، ولذلك قال: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ﴾ أي الكائن في هذا البحر بدلالة المعنى وإن لم يجر له ذكر ﴿يَدَهُ﴾ وهي أقرب شيء إليه ﴿لَمْ يَكَدْ﴾ أي الكائن فيه ﴿يَرَاهَا﴾ أي يقرب من ذلك فضلاً عن أن يكون؛ لأنَّ الله قد ستر عنه كلَّ نور بهذه الظلمات المتكاثفة وهو مثال لعمله وأنه عدم لما تقدم من أنَّ العدم كله ظلمة، فلا عمل له يكون شيئًا ولا يقرب من ذلك؛ لأنه لا أهليَّة له بوجهٍ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.[2]

المطلب الثاني: إعجاز النَّص القرآني في ضرب المَثل

جاءت الآية في سياق الحديث عن الهداية والضلال، فبعد أن ضرب الله المثَلَ للمؤمنين وشبه قلوبهم بالنور وبيَّن سبل الحصول على النور في المساجد، ضربَ المثَلَ للكافرين الضُلاَّل وشبه قلوبهم بالظلمات وأعمالهم بالسَّراب.

فربط سبحانه بين هذه الأمثال المصوّرة لحال من أعطاه الله النور ومن لم يحصل له ذلك النور وبيان لحقيقة هامَّة وهي أنَّ الهداية لا تكون إلا بنور الله عزَّ وجل الحاصل من تعلم العلم من الوحي النازل من الله والإيمان والعمل به وأنَّ من لم يسلك سبيل العلم فلن يُعْطِيَهُ الله نوراً ومن لم يعطه الله نوراً فلن يستنيرَ قلبه أبداً، ولو سلك ما سلك من الطرق.

---

(1) الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن: 170.

(2) نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور: 5/ 270- 271.

وهذه الحقيقة المستفادة من سياق المثلين المتمثلة: بوجود نور يهدي إلى الإيمان، هو نور العلم، ووجود نور يجعله الله في قلوب عباده المؤمنين هو نور الإيمان، دلَّ عليه قوله تعالى في ألفاظ ما تقدَّم: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:35].(1)

فدلَّ السياق على أنَّ سبب ضلال الكفار، وظلمة قلوبهم وأحوالهم هو إعراضهم عمَّا أنزله الله من العلم وتكذيبهم للمرسلين. حتى حجب هذا الإعراض وهذا التكذيبُ نورَ العلم الإلهي كما حجب السَّحاب وظلمة الأمواج ضوء الشمس، فهم في ظلمات مستحكمة، قد بعدوا عن العلم الصَّحيح بُعْد الممثَّل به عن ضوء الشمس. وضُرب لذلك مثلان يبيِّنان حال الكفار الذين حُرموا من النور الإلهي، هما: مثل السَّراب، ومثل الظلمات.

وأمَّا عن الغرض الذي ضُرب له المثل، فقد ذكر أكثر المفسِّرين أنَّ المثل ضُربَ لأعمال الكفار، لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ وذلك كونه عطف على الآية المتقدّمة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾ [النور:39]. بَيْدَ أنَّ عباراتهم قد اختلفت في تحديد المعنى المضروب له المثل، ويُمكن حصرها في اتجاهين:

الاتجاه الأول: من يرى أنَّ المثل ضُرب لعمل كلِّ كافر، وأنه يصْدق عليه المثل باعتبارٍ، ويبيِّن جانباً من أعماله. فمن المفسِّرين من يرى أنَّ المثل ضُرب لاعتقاد الكافر السيِّئ، ومثِّل له بالظلمات. وقريب منه من يرى أنَّ المثل لأعماله الباطنة.(2)

ومنهم من يرى أنه سبحانه شبه أعمال الكفار في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه ثمَّ شبهها في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإِيمان بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج.(3)

(1) ينظر: الأمثال القرآنية القياسية: 2/ 282.

(2) ينظر: تفسير الرازي: 24 / 399، 403، اللباب في علوم الكتاب: 14/ 407.

(3) ينظر: اجتماع الجيوش الإسلاميَّة: 20.

ومنهم من يرى أنَّ مثل الظلمات لبيان حالهم في الدُّنيا، وأنَّ أعمالهم كانت على خطأٍ وفساد وضلالة وحيرة وعلى غير هدى.[1]

الاتجاه الثاني: من يرى أنَّ المثل ضُرب لبيان أعمال نوعَي الكفار، وأنَّ الكفار في الجملة صنفان: أصحاب الجهل والضلال البسيط[2]، وأصحاب الجهل والضلال المركب.[3]

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا الفرق بينهما: «فأهل الجهل والكفر البسيط لا يعرفون الحق ولا ينصرونه وأهل الجهل والكفر المركب يعتقدون أنهم عرفوا وعملوا، والذي معهم ليس بعلم، بل جهل».[4]

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: 19 / 197 .

(2) الجهل البسيط: هو عدم العلم أو الاعتقاد عمّا من شأنه أن يكون عالماً أو معتقداً. والجهل البسيط يزول بسرعةٍ وسهولةٍ بالتعليم والتعريف ينظر : التعريفات: 108، التوقيف على مهمات التعاريف: 260، إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول :1/ 23، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: 1/ 288.

(3) الجهل المركب: وهو العلم والاعتقاد بما يُخالف الواقع؛ لأنه جهل بشيء مركب من جهله ولأنَّ صاحبه لا يعلم بجهله، بل يعلم أنه عالم فهو جاهل والجهل المركب لا يزول إلا بصعوبة ومهلةٍ، بل المشهور أنّه لا يقبل العلاج. ينظر: التحبير شرح التحرير في أصول الفقه: 1/ 252، التعريفات: 108، التوقيف على مهمات التعاريف: 260، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون : 1/ 288.

(4) درء تعارض العقل والنقل: 4/ 19.

فمن هؤلاء: الشيخ ابن تيميَّة وتلميذه ابن القيِّم، إذ نصَّا في مواضع على أنَّ مثل الظلمات للجهل البسيط.[1]

وفي موضع آخر أشارا وألمحا إلى أنَّ مثل الظلمات للجهل المركب.[2]

وفي موضع ثالثٍ لابن القيِّم ذكر أنَّ الظلمات مثلٌ لجموع علومهم وأعمالهم فهي ظلمات لا نور فيها، لذا قال: «فأصحاب النوع الثاني مثلهم كمثل الظلمات المتراكمة وهم الذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليهم ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين وظلمة اتباع الغنى والهوى فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحاب مظلم فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السّحاب. فهؤلاء هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى وآثروا الباطل على الحق وعموا عنه بعد أن أبصروه وجحدوه بعد أن عرفوه فهذا حال المغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة».[3]

وهذا مَثلٌ لأصحاب العلم الذي لا ينفع، والاعتقادات الباطلة وهو مضاد للهدى ودين الحق ولهذا مثَّلَ الله تعالى حالهم في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب مظلم. وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سحب الغي والهوى والباطل. وأخبر سبحانه أنَّ الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم

---

(1) ينظر: درء تعارض النقل والعقل: 3/ 95، إعلام الموقعين: 1/ 157، الأمثال في القرآن الكريم: 15، 17.

(2) ينظر: مجموع الفتاوى: 7/ 277- 278، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: 1/ 70، درء تعارض العقل والنقل: 1/ 89، منهاج السنّة: 5/ 114، إعلام الموقعين: 1/ 158. وينظر : الأمثال في القرآن الكريم: 15، 17- 19، مدارج السّالكين: 3/ 163.

(3) ينظر: إعلام الموقعين: 1/ 157، الأمثال في القرآن الكريم: 15، 17.

نوراً، بل تركهم على الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور فإنه سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة:257]. وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ يَوْمَئِذٍ شَيء اهْتَدَى وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ . فَلِذَلِكَ أَقُولُ:[1] جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهَّ»[2].[3]

(1) أي: عبد الله بن عمرو. ينظر : فتح الباري: 11/ 492.

(2) سنن الترمذي: كتاب: (الإيمان)، باب: (ما جاء في افتراق الأمة)، رقم الحديث: (2642): 5/ 26 وقال عنه الترمذي: (حسن)، السّنن الكبرى (للبيهقي): كتاب: (السير)، باب: (مبتدأ الخلق)، رقم الحديث: (18165): 9/ 4 ، صحيح ابن حبان: (ذكر إلقاء الله جل وعلا النور على من شاء من خلقه هدايته) برقم: (6169): 14 / 43 وعلق عليه شعيب الأرناؤوط قائلاً: (إسناده صحيح)، المستدرك على الصحيحين: برقم (83): 1/ 84 وقال عنه الحاكم: (هذا حديث صحيح قد تداوله الأئمّة و قد احتجا بجميع رواته ثمّ لم يخرجاه و لا أعلم له علة).

(3) وللإفادة اذكر شرح الحديث – خشية التوهم-: فقوله: (خلقه) أي الثقلين من الجن والإنس أو الإنس فقط، لا الملائكة فإنهم ما خلقوا إلا من نور (في ظلمة) أي كائنين في ظلمة النفس الأمارة بالسوء المجبولة بالشهوات المردية والأهواء المضلة. (فألقى) أي فرش كما في رواية (من نوره) أي نوره الذي خلقه الله تعالى، فمن زائدة في الإثبات أو بيانية أي شيئاً هو نوره فيكون «من نوره» صفة محذوف، أو تبعيضية أي بعض نوره، وإضافة النور إلى الله تعالى إضافة إبداع واختراع على سبيل التكريم كما في قوله: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[الحجر:29]. (فمن أصابه من ذلك النور) أي شيء من ذلك النور أو بعض ذلك النور. قيل: المراد بالنور الملقى عليهم نور الإيمان والطاعة والإحسان والمعرفة . وقيل: المراد به ما نصب لهم من الشواهد والحجيج وما أنزل إليهم من الآيات والنذر، إذ لو لا ذلك لبقوا في ظلمات الضلالة والجهالة، والمراد بإصابة النور الاعتبار بالحجج والانتفاع بالشواهد، والاستدلال بالآيات على ذاته تعالى وصفاته، وعلى دين الإسلام بتوفيق الله، فمن شاء الله بهدايته فشاهد حججه واعتبر بآياته واستدل بشواهده بالنظر الصَّحيح، فهو الذي أصابه ذلك النور فخلص

والحق أنَّ كلا الاصطلاحين يصدق على مثل الظلمات باعتباره أقرب إلى الجهل المركب لدلالة صورته وألفاظه على ذلك: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ إذ دلَّ على أنَّ كفرهم مركب من ظلماتٍ ناتجةٍ عن جهالات وضلالات ، فضلاً عن كون الجهل المركب متضمِّن للجهل البسيط، فهناك تداخل باعتبار انطباق الاصطلاحين على المَثَل.[1]

ومنهم من يرى – وهو ابن القيِّم- أنَّ مَثَلَ الظلمات لأصحاب الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة.[2] وكذلك مُثِّلَ لحال الضالين.[3] ومنهم من يرى – وهو ابن كثير- أنَّ مثل الظلمات للمقلدين لأئمَّة الكفر الصمِّ البكم الذين لا يعقلون.[4] فوصفهم الله تعالى بهذا؛ لأنَّهم بين ناظر وباحث ومقدر ومفكر وبين مقلد يحسن الظنَّ بهم.[5]

=من تلك الظلمة واهتدى ومن لم يشأ هدايته فعمي عن آياته، فهو الذي حرم من ذلك النور وبقي في ظلمات الطبيعة متحيراً وارتدى، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً﴾[الأنعام:122] ... فعلم أنَّ الهداية والضلالة بمشيئة الله وتقديره في الأزل ... (ومن أخطأه) أي ذلك النور يعني جاوزه ولم يصل إليه (ضلَّ) أي خرج عن طريق الحق. (فلذلك) أي فلأجل عدم تغير ما جرى في الأزل تقديره من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية. (أقول جف القلم) أي فرغت الكتابة، إشارة إلى أنَّ الذي كتب وقدر لا يتغير حكمه. مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: 1/ 190-191.

(1) ينظر: الأمثال القرآنية القياسيَّة: 2/ 466.

(2) ينظر: إعلام الموقعين: 1/ 158، الأمثال في القرآن الكريم: 17.

(3) ينظر: المصدران أنفسهما.

(4) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 6/ 71.

(5) ينظر: الصّواعق المرسلة: 3/ 853.

ونخلص من هذا إلى أنَّ السِّياق الذي تضمَّن مَثَل الظلمات يُقرِّر أنَّ حال الكفار الذين أعرضوا عن نصوص القرآن والسنَّة وأعرضوا عن العلم والوحي وفقدوا نورهما، بل كذبوا المرسلين واستمدوا علومهم من مستنقعات الجاهليَّة، فقد أظلمت قلوبهم وأبصارهم وضلت أعمالهم فلم ينتفعوا بها.

لذا فإنَّ نور الشمس محجوبٌ عنهم بحجب غليظة قد حجبها السَّحاب، وظلمة أمواج البحار فالمحيط من حولهم ظلام دامس، ممَّا يدعهم حيارى لا يهتدون إلى طريق، فهم في عمى تام.

كلُّ ذلك بسبب جهلهم وعقائدهم الضالة فلا يستطيعون منها خلاصاً؛ لأنه ليس لديهم شيء من العلم بالوحي فهم في جاهليَّةٍ عمياء وظلمةٍ مطبقة إذ إنَّ نور الشمس الذي فوق السَّحاب قد حيل بينهم وبينه، فلن يجد نوراً من غيره. وهذا حال الكفار المستكبرين عن عبادة اللهَّ وحده، فناسب لهم قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. ممَّا يدلُّ على أنَّ الهداية والضلال إنما هما من اللهَّ بأسبابٍ تكون من العباد.

إنَّ نوع هذا المثَل من حيث القياس هو قياس تمثيلي: إذ جعلت الصّورة المنتزعة من حال الكائن في ظلمات بحر لجيٍّ حجب عنه النور بأكثر من حجاب وما يحيط به من أحوال البحر المضطرب كثير المخاوف، مثالاً تقاس به أعمال فريق من الكفار ويُعطَوْن حكمه، ويُعتَبرُ به في معرفة حقيقة حالهم.

وأمَّا من حيث التشبيه: فهو تشبيه مركب، وذلك أنَّ كلاً من الممثَّل به والممثَّل له عبارة عن صورة مركبة من جملة أفراد تعطي في مجموعها الوصف المعتبر، والحكم المشترك بين المشبه والمشبه به. إذ شبهت أعمال صنف من الكفار في ظلمتها وظلمة قلوب عمالها وحيرتهم، وما ينتابهم من اضطراب وخوف، بالظلمة الحاصلة حول شخص كائن في قاع بحار عميقة تضطرب حوله الأمواج، وتنتابه المخاوف، بسبب

استحكام الظلمة من حوله في ذلك المكان المفزع، حتى إنه إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها حيث حجب عنه الضوء بحجب ثلاثة.[1]

﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ وهذه الجملة فيها إجمال بعد تفصيل، وقد تضمَّنَ أسلوب المثَل إجمالاً، ثمَّ تفصيلاً ثمَّ إجمالاً. وذلك أنه قال في أول المثَل: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٍ﴾ ثمَّ فصَّلها وبيَّنَ أنها مكوَّنة من ظلمة قاع البحر الناتجة عن موج فوقه وموج فوق الموج الأوَّل، وسحاب فوق الجميع، ثمَّ أجملَ بقوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾.

والمراد بالظلمات هنا: الظلمات المعنويَّة التي حَجَبَت نور الهداية وهي: (ظلمة الكافر وضلاله من حيث العمل وظلمة جهله لعدم علمه، وإعراضه عمَّا جاء من عند اللهَّ من العلم والهدى) .. والتي تقابل الظلمات الحسيَّة - المذكورة في هذه الآية- وقد تسببت في حَجْب الضوء. لذا فقد نصَّ الطبري رحمه الله على أنَّ الكفر إنما سُمّي ظلمة؛ لأنه يحجب القلب عن إدراك حقائق الإيمان، إذ قال: «وإنَّما جعل الظلمات للكفر مثلاً؛ لأنَّ الظلمات حاجبة للأبصار عن إدراك الأشياء وإثباتها وكذلك الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان والعلم بصحته وصحة أسبابه».[2]

وفي موضع آخر قال: «ويعني بالظلمات: ظلمات الكفر وشكوكه الحائلة دون أبصار القلوب ورؤية ضياء الإيمان وحقائق أدلته وسبله».[3] ومن خلال ما تقدَّمَ يمُكنني تحديد المراد بالظُّلَم الثلاث القائمة بهذا الصنف من الكفار، والتي تقابل الظُّلَم الحسيَّة في البحر اللجيِّ، هي:

1- **ظلمة الجهل**: المتمثل في الإعراض عن وحي اللهَّ المطهر - القرآن والسنَّة - والجحود والتكذيب له، وغير ذلك من الضلالات العلميَّة والعمليَّة الباطنة. وهي تقابل الموج الأول الباطني.

(1) الأمثال القرآنية القياسيَّة: 2/ 572.

(2) تفسير الطبري: 5/ 424.

(3) المصدر نفسه.

2- **ظلمة الكفر**: المتضمِّن للضلالات العلميَّة والعمليَّة الظاهرة، وهي تقابل الموج السَّطحي الظاهر على سطح البحر .

3- الحجاب النَّاتج عن ختم اللهَّ على قلوبهم وأسماعهم، وجعله الغشاوة على أبصارهم. وهو يُقابل السَّحاب في الممثَّل به.[1] قال جلَّ وعلا: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة:7].

ولهذه الصُّورة جمال، وجمالها ينبع من عدة أشياء:

منها: التذكير بنعمة الله تعالى على عباده؛ إذ جعل ذلك جزءاً من الصّورة ، ومن خطوطها الأساسيَّة، ليكون ذلك دافعاً لهم ومحرضاً، وحاجزاً عن الميل إلى الكفر والضلال والفتن وشهوات الدنيا.

ومنها: الإشارة إلى الدَّقة العالية في التشبيه، والالتزام الشديد بأنوار العلم الحقيقي المستمد من الوحي.

ومنها: الترهيب من مخالفة هذا الدِّين، والقواعد الضابطة له، وذلك من خلال استعمال اسم ﴿اللهُ﴾ تعالى، ولم يقل: ((ومن لم يجعل الرّب له نوراً فماله من نور)).

(1) ينظر: الأمثال القرآنيّة القياسيَّة: 2/ 609.

المبحث الثاني

تحليل مفردات الآية وإعجاز تصويرها

الظلمات: «الظلمة عدم النور وجمعها ظلمات ... ويعبر بها عن الجهل والشرك والفسق كما يعبر بالنور عن أضدادها».(1)

فالظلمة: عدم النُّور عمَّا من شأنه أن يستنير ، والظلمة في أصل اللغة: عبارة عن النقصان قال تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا ﴾ [الكهف:33] أي لم تنقص. وفي المَثَل: من أشبه أباه فما ظلم، أي فما نقص حقّ الشبه.(2)

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾: فسَّرها ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: ((الأعمال)).(3)

وقد اختلف المفسِّرون في معنى ﴿أَوْ﴾ المراد هنا في الآية إلى عدة أقوالٍ:

– قال الزجاج: «إن شئتَ مثل بالسّراب، وإن شئتَ مثل بالظلمات فـ﴿أَوْ﴾ للإباحة».(4)

– قال السَّمعاني: «قال أهل المعاني: المراد من الآية أنك إن شبّهتَ أعمالهم لما يوجد، فهو ... من السَّراب بالقيعة وإن شبهتَ أعمالهم لما يُرى، فهو كالظلمات في البحر اللجي».(5)

– «﴿أَوْ﴾ للتخيير فإنَّ أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسَّراب، ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لجِّ البحر والأمواج والسَّحاب، أو للتنويع فإنَّ

(1) المفردات في غريب القرآن: 315 .

(2) تفسير الرازي: 1/ 236 .

(3) أورده الطبري في تفسيره جامع البيان: 19/ 198 .

(4) الجامع لأحكام القرآن: 12/ 283، فتح القدير: 4/ 58.

(5) تفسير السّمعاني: 3/ 537.

أعمالهم إن كانت حسنة فكالسَّراب وإن كانت قبيحة فكالظلمات، أو للتقسيم باعتبار وقتين فإنها كالظلمات في الدُّنيا وكالسَّراب في الآخرة». [1]

ويُمكن تفسير ﴿أَوْ﴾ للإباحة أي بمعنى: أنَّ كلَّ مثلٍ من المثَلين - مَثل السَّراب، ومَثل الظلمات - يصلح لبيان حال وحكم أعمال الكفار، باعتبار وجه التمثيل، فبأيِّهما مثَّلتهم فأنتَ مُصيب، وإن مثَّلتهم بهما جميعاً فكذلك. [2]

و «الفرقَ بين الإِباحة والتخيير: أنَّ الإِباحة لا تمنع الجمع، والتخيير يمنعه». [3]

وقال الجرجاني: «والعطف بأو هنا؛ لأنه قصد التنويع والتفصيل لا أنَّ ﴿أَوْ﴾ للشكِّ». [4]

واختار الكرماني كون: «﴿أَوْ﴾ للتخيير على تقدير شبه أعمال الكفار بأيِّهما شئت. [5]

واختار أبو السُّعود كونها للتنويع، على تقدير: إثر ما مثلت أعمالهم التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ويفتخرون بها في كلِّ واد وناد بما ذكر من حال السَّراب مع زيادة حساب وعقاب مثلت أعمالهم القبيحة التي ليس فيها شائبة خيرية يغتر بها المغترون بظلمات كائنة في بحر لجُي. [6]

و﴿أَوْ﴾ - عند أهل التحقيق من علماء اللغة- موضوعة لأحد الشيئين المذكورين معها. فدلَّ وجودها عاطفة بين التمثيلين على أنَّ أعمال الذين كفروا كسراب، أو

(1) ينظر: تفسير البيضاوي: 1/ 193، تفسير الرازي: 1/ 3348، تفسير السراج المنير: 2/ 494.

(2) ينظر: الفريد في إعراب القرآن المجيد: 1/ 234.

(3) شرح ابن عقيل: 3/ 232.

(4) البحر المحيط: 6/ 424.

(5) المصدر نفسه.

(6) ينظر: تفسير ابي السعود: 6/ 181.

كظلمات. فإنها لا تخلو من أحد المثلين. أمَّا ما ذكروه من دلالتها على الإباحة، أو التخيير أو التنويع، أو التقسيم، فإنَّ ذلك يستفاد من السِّياق، لا من ﴿أَوْ﴾ نفسها.[1]

فكلُّ مَثَلٍ ضُرِبَ لبيان أعمال فريق من الكفار، وما يتصل بها من أحوالهم وصفاتهم.

وحرف العطف ﴿أَوْ﴾ قد دلَّ على أنَّ الممثَّل له هو أعمال صنف من الكفار؛ لتعلقه بما قبله ولقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

﴿بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾: يقال في اللغة: التجَّ البحر إذا تلاطمت أمواجه.[2] والتج الأمر إذا عظم واختلط. وقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ [النمل:44]. أي: ماله عمق.[3]

و «أصل البحر كلّ مكان واسع جامع للماء الكثير».[4] وهو يُطلق على البحر الصَّغير والكبير، كما دلَّ عليه قوله سبحانه: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:164] ومعلومٌ أنَّ الفلكَ تجري في البحار الصَّغيرة، وفي المحيطات الكبيرة. وقوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [يونس:90] ومعلومٌ أنَّ البحر الذي فرَّقه اللهَّ لبني إسرائيل من البحار الصَّغيرة.[5]

---

(1) ينظر: توضيح المقاصد والمسالك بشرح الألفية: 2/ 994، شرح ابن عقيل: 3/ 225، النحو الوافي: 3/ 628، 705.

(2) ينظر: غريب الحديث (لابن الجوزي): 2/ 314، النهاية في غريب الحديث والأثر: 4/ 440.

(3) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: 4/ 440، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 284.

(4) المفردات في غريب القرآن: 37 – 38 . وينظر: المعجم الوسيط: 1/ 40. وفي الصّحاح للجوهري: 2/ 585 مادة: (بحر): «البحر: خلاف البر. يقال: سمّي بحراً لعمقه واتساعه. والجمع أبحر وبحار وبحور. وكلّ نهر عظيم بحر».

(5) وهو بحر القلزم، المعروف اليوم بالبحر الأحمر. ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 2/ 50، التحرير والتنوير: 8/ 264، أيسر التفاسير: 2/ 503.

ويُطلق أيضاً على الماء المالح والعذب لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر:12].[1] وعلى هذا فلفظ البحر يُطلق على المحيطات العظيمة والبحار الصَّغيرة، والأنهار الجارية والبحيرات الكبيرة، المالحة منها والعذبة والأودية.[2]

وبهذا يُعلم ضعف قول من حصرَ تعريف البحر في البحار الكبيرة المتصل بعضها ببعض[3]، أو في البحار مالحة الماء.[4]

قال ابو حيان: «وجاء استعماله للملح، ويقال: هو الأصل، فيه أنشد أحمد بن يحيى: وقد عاد عذب الماء بحراً فزادني على مرض أن أبحر المشرب العذب أي صار ملحاً».[5]

ولكنَّ ظاهر نصوص القرآن تعارضه – كما تقدم– ولعموم وسعة دلالة لفظ البحر ناسب وصفه بأنه لجُيٌّ ليكتسب معنىً وبُعداً هامَّين في إبراز الصُّورة المرسومة في المثَل . وقد فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾. بقوله: ((قلب الإنسان)).[6] وتدور تفاسير أهل العلم للفظ ﴿لُّجِّيٍّ﴾ على معنيين:

---

(1) ينظر: البحر المحيط: 1/ 353، التحرير والتنوير: 27/ 232.

(2) ينظر: التحرير والتنوير: 5/ 219، 20/ 16.

(3) ينظر: من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: 2/ 267.

(4) ينظر: تفسير البيضاوي: 1/ 224، المفردات في غريب القرآن: 38، تفسير ابي السّعود: 6/ 225.قال الآلوسي: «من كمال قدرته تعالى وبالغ حكمته عزَّ وجل فإنَّ العذوبة والملوحة ليستا بسبب طبيعة الأرض ولا بسبب طبيعة الماء وإلا لكان الكلّ عذباً، أو الكلّ ملحاً.

وذكر في حكمة جعل البحر الكبير ملحاً أن لاينتن بطول المكث وتقادم الدُّهور قيل: وهو السرُّ في جعل دمع العين ملحاً، وفيه حكم أخرى الله تعالى أعلم بها». روح المعاني: 19/ 34.

(5) البحر المحيط: 1/ 353.

(6) أورده الطبري في تفسيره جامع البيان: 19/ 198.

أحدهما: التردد والاختلاط والاضطراب، الناتج عن اختلاط الأمواج وهيجانها. ومنه قولهم: «التجَّ البحر: اضطرب وهاج وغمر».[1] ويؤيِّدُ هذا المعنى ما بعده، من قوله: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ﴾.

قال الرَّاغب مبيِّناً هذا المعنى: «ومنه لَجَة الصَّوت - بفتح اللام - أي تردده، ولُجة البحر - بالضمِّ - أي تردد أمواجه ... قال: ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ منسوب إلى لجة البحر».[2]

ويُستفاد من هذا أنَّ المكان المصوّر للمشبه به مكان مخوِّف مفزع موحش، قال الشوكاني: «أخوف ما يكون إذا توالت أمواجه فإذا انضمَّ إلى ذلك وجود السَّحاب من فوقه زاد الخوف شدة؛ لأنَّها تستر النجوم التي يهتدي بها من في البحر».[3]

ثانيهما: اللُّجِّيُّ: العميق كثير الماء، منسوب إلى اللُّجِّ وهو معظمُ البحرِ[4] «حيث لا يُدرك قعره».[5] وقيل: منسوب إلى اللُجَّة – بالتاء– وهي أيضاً مُعْظمه.[6]

ويؤيِّدُ دلالة وصف البحر بأنه لجيٌّ على عمقه، ما ثبتَ في علم البحار من أنَّ الأمواج الباطنيَّة - التي تكون تحت سطح الماء المعبر عنها بقوله : ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ - لا تكون إلا في البحار العميقة.[7]

---

(1) ينظر: المعجم الوسيط: 2/ 816.

(2) المفردات في غريب القرآن: 448.

(3) فتح القدير: 4/ 58.

(4) ينظر: تفسير الطبري : 19/ 197، تفسير البغوي: 6/ 52، الكشاف: 3/ 249.

(5) المعجم الوسيط / 2/ 816.

(6) ينظر: الدر المصون: 11/ 107، تفسير ابي السعود: 6/ 181، التبيان في تفسير غريب القرآن: 312، المعجم الوسيط: 2/ 816.

(7) ينظر: المعجزة القرآنية (الإعجاز العلمي والغيبي): 195.

فصار البحر السَّطحي الذي يعلوه الموج الذي هو على السَّطح ونراه بأعيننا والذي يصل عمقه من (200 – 500م) مظلماً ولكن ليس بالظلام الحالك؛ وذلك لدخول بعض الأشعة النافذة من سطحه. وهذه الأشعة القليلة النافذة والموجودة في البحر السَّطحي لا بد لها من الانتشار على قلتها فتعمل على الدّخول عبر الموج الذي يعلو سطح البحر اللجيِّ ولكنَّها تصدم بحاجزين يمنعاها من الدُّخول تماماً.[1]

وعليه فقد تضمَّنَ قوله تعالى: ﴿ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ ﴾ فائدة علميَّة في علم الضوء. وذلك أنه سبحانه عَدَّ في الظلمات الموج الأول والموج الثاني. والموج: هو حركة ماء البحر وماء البحر شفاف.[2] فكيف إذاً يُسمَّى ظلمة؟

إنَّ تسمية هذه الحُجُب ظلمة إنما هو باعتبار أنها مسببة لها. والسِّياق يدلُّ على أنَّ الظلمة لم تحدث من شيءٍ واحدٍ وإنما ساهمت هذه العوامل مجتمعة في تكوينها واستحكامها. فالسَّحاب، والموج الأوَّل، والموج الثاني، كلٌّ منها عزل شيئاً من الضوء فأحدثَ ظلمةً فيما تحته.

وهذا المعنى تماماً هو ما يؤكده قانون انعكاس الضوء وانكساره عند مروره في الأوساط المختلفة وخلاصته: أنه إذا سقطت حُزمة من الأشعة الضوئيَّة على سطح، فصل بين وسطين شفافين فإنها تنقسم إلى حُزمتين: حُزمة تنعكس، وأخرى تنفذ إلى الوسط الثاني وتنكسر داخله.[3]

ونظراً لتعدد الأوساط المائيَّة داخل البحر بسبب اختلاف كثافتها، فإنَّ عملية الانعكاس والانكسار تتكرَّر، وكميَّة الضوء النَّافذ تقلُّ؛ «لأنَّ المياه في البحار والمحيطات سُرعان ما ترتب نفسها رأسياً وأفقياً تبعاً لاختلاف كثافتها وتتركز طبقات

(1) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم (الأرض): 2/ 110.

(2) ينظر: جغرافية البحار: د. عبد العزيز طريح: 184.

(3) ينظر: الفيزياء العامَّة والتطبيقية: أ. محمد بشير مكي: 2/ 83.

المياه الأثقل وزناً والأعلى كثافة في الأسفل، وتعلوها طبقات المياه الأقل وزناً والأقل كثافة». [1]

وكذلك لعدم استقامة الوسط الفاصل على سطح البحر نتيجة للتموّج، ولذلك يتخذ الماء أشكالاً مختلفة تساعد على زيادة انعكاس الضوء، وهو ما يُسمَّى علميًّا: (الانكسار المضاعف)، أو (انتثار الضوء) بسبب عدم تماثل المناحي وتعدد الأوساط، وغير ذلك من العوامل. [2] لأنَّ «من خاصيَّة الضوء أن يؤثرَ في البصر، وإنَّ من طبيعة البصر أن ينفعلَ بالضوء. فأخلق بأن يكون إحساس البصر بالضوء الذي في المُبْصَر إنما هو من الضوء الذي يرد منه إلى البصر». [3]

لذا فإنَّ البصر لا يُدرك شيئاً من المُبْصَرات التي تكون معه في هواء واحد ، بل يكون إدراكه لها إذا اجتمعت له عدة معانٍ [4]:

- أن يكون بينه وبينها بُعداً ما.
- أن يكون مقابلاً للبصر.
- أن يكون فيه ضوء ما، إمَّا من ذاته أو من غيره.

فالعين لا ترى بالظلام، والضوء المنبعث من الأجسام المرئية إلى العين هو السَّبب في رؤيتها ممَّا يدلُّ على اشتراط أن تكون الأجسام مضيئة لكي تُرى. وفي هذا إشارة إلى بطلان التفسير القديم الذي يقول إنَّ سبب الرؤية: خروج أشعة من العين تسقط على الأجسام فتراها العين. [5] وهذا ما يُقرِّره القرآنُ: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾.

(1) من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: 2/ 264.

(2) ينظر: الفيزياء العامَّة والتجريبيَّة (الضوء): بيير فلوري، وجان بول: 4/ 443، 459.

(3) المناظر: 137.

(4) ينظر: المرجع نفسه: 189.

(5) ينظر: روح المعاني: 18/ 184.

فالكائن في ذلك المكان لا يرى شيئاً البتة بسبب شدة الظلام المفزع مع اضطراب الأمواج المخيفة.

﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾: «أي يستره ويُغطيه بالكليَّة».[1] قال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[لقمان:32] أي: علاهم موج كالجبال والغمام[2]. ومثله قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[طه:78].

بمعنى: «علاهم وأصابهم ما علاهم».[3]

والموج: اسم جمع موجة. والموجة: مقدار يتصاعد من ماء البحر أو النهر عن سطح مائه، أي ما يعلو من غوارب الماء؛ وذلك بسبب اضطراب في سطحه بهبوب ريح من جانبه يدفعه إلى الشاطئ. وأصله مصدر: ماج البحر، أي اضطرب وسمِّي به ما ينشأ عنه.[4] وأيضًا أصله الحركة والازدحام، ومنه يقال: ماج الناس.[5]

﴿مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾: متراكم إذ إنَّ الموج لا يتكسّر حتى يلحقه موجٌ آخرٌ من فوقه وذلك أبقى لظلمته، والسَّحاب يزيد الظلمة إظلاماً؛ لأنَّه يحجب ضوء النَّجم والهلال.[6]

وهذا الموج هو الكائن على سطح البحر، المشاهد بالعيان، وهو المعنى المتبادر إلى الذهن إزاء لفظ (الموج) ولم يصرف عن ذلك بصارفٍ. كما أنَّه هو الموج الذي يكون السَّحاب من فوقه.

(1) تفسير ابي السعود: 6/ 181.

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 6/ 351.

(3) فتح القدير: 3/ 541.

(4) ينظر: التحرير والتنوير: 18/ 256.

(5) ينظر: فتح القدير: 4/ 348.

(6) ينظر: تفسير البغوي: 6/ 52، التحرير والتنوير: 18/ 256.

﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٌۚ﴾: وأصل السُحُب: الجر كسحب الذيل، والإنسان على الوجه، ومنه: السَّحاب إمَّا لجر الرِّيح له، أو لجره الماء، أو لانجراره في مره، قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾، ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر:71-72]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:48]. وقيل: فلان يتسحب على فلان كقولك: ينجر، وذلك إذا تجرأ عليه، والسَّحاب: الغيم فيها ماء أو لم يكن ولهذا يقال: سحاب جَهَام[1]، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا﴾ [الأعراف:57]، ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ [النور:43]. ويقال عكسه: سحاب ثِقال، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد:12]. أي: المحمَّل بالمطر الغزير.

فهي «لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض».[2] وقد يذكَّر لفظه، ويُراد به الظلُّ والظلمة؛ كما في هذه الآية: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾.[3]

والسَّحاب: الخذلان من الله تعالى.[4] فيجتمع خوف الموج وخوف الرِّيح وخوف السَّحاب، وقيل: المعنى يغشاه موج من بعده موج، فيكون المعنى: الموج يتبع بعضه بعضًا حتى كأنَّ بعضه فوق بعض، وهو أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب ومن فوق هذا الموج سحاب. وهو أعظم للخوف من وجهين:

أحدهما: أنه قد غطَّى النجوم التي يهتدي بها.

(1) ينظر: لسان العرب: مادة: (جهم): 12/ 110.

(2) تفسير القرآن العظيم: 4/ 440.

(3) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: 1/ 461.

(4) بحر العلوم (للسّمرقندي): 2/ 516.

الثاني: الرِّيح التي تنشأ مع السَّحاب والمطر الذي ينزل منه.[1]

وهذا الحجاب – السَّحاب– خارج عن البحر منفصل عنه، وأثره في حجب النور أعظم إذ حجب مصدر النور الحسي الذي هو الشمس في النهار، ومعالم الاهتداء التي هي النُّجوم في الليل.

والسِّياق لم يذكر هل الزمان ليلاً أو نهاراً. ومن ذكرَ من المفسِّرين[2] أنَّ الزمان ليلٌ اعتبرَ أنه هو الأنسب لسياق الصُّورة المرسومة لشدة الظلمة. بَيْدَ أنَّ اعتبار الزمان نهاراً، له وجهٌ معتبرٌ في الإعجاز، إذ يدلُّ على أنَّ مصدر النور – الذي هو الشمس– موجود إلا أنَّ صاحب الظلمات أوقع نفسه في مكان محجوب عن النور، وفي حال أوجبت أن يُحالَ بينه وبينها.

وعلى هذا فالأشعة الضوئية التي تنفذ من الحجاب الأول – السَّحاب – ينعكس جزء كبير منها عند سطح البحر عند سقوطه على الموج السطحي – الحجاب الثاني – ويتوالى انعكاس وتكسر الضوء النافذ إلى الماء حتى لا يكاد يصل إلى الموج الباطني – الحجاب الثالث – شيء وما قد يصل إليه يحصل له ما حصل للضوء عند مروره في الموج الأول فيتلاشى الضوء تماماً داخل الموج الثاني ولا ينفذ منه شيء إلى أسفل. وإذا عُلم أنَّ أعماق البحار الكبيرة سحيقة – فالمحيط الهادي مثلاً متوسط عمقه (4282) متراً وأقصى عمق له هو (11022) متراً.[3]

ومن هنا يُعلم بُعد مكان القاع العميق عن مصدر الضوء، وشدة ظلمته لوجود الحُجُب الكثيرة بينه وبينها. وهذه الظلمة ملازمة لا تتأثر بإشراق الشمس نهاراً فوق السّحاب، أو غيابها ليلاً. فسببها الحُجُب الكثيفة المانعة للضوء والبُعد السَّحيق وعلى

(1) الجامع لأحكام القرآن: 12/ 284.

(2) فتح القدير: 4/ 39، الفريد في إعراب القرآن: 3/ 605.

(3) ينظر: من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: 2/ 276.

هذا فالأنسب - واللهُ أعلم - في اعتبار الظلمة افتراض أنَّ الشمس مشرقة فوق السَّحاب وذلك للاعتبارات التالية:

1- أنَّ ذلك أبلغ – من حيث الإعجاز- في إفادة شدة الظلمة، إذ إنَّ الظلمة اللازمة التي لا تتأثر بليل ولا بنهار أشدّ وأعظم من الظلمة الطارئة المتأثرة بالشمس.

2- أنَّ افتراض أنَّ الشمس مشرقة، يُفيد في الدَّلالة على بُعد الواقع في ذلك المكان المظلم عن مصدر النور - الشمس - والذي يُقابل في الممثّل له بنور العلم. ممَّا يُفيد – إعجازاً- في بيان أنَّ ضلاله إنما هو بسبب بُعده عن مصدر النور ووجود تلك الحُجُب وليس انعدام مصدر النور.

3- أنَّ التفصيل في ذكر الحُجُب ، وتسميتها ظلمات يدلُّ على أنَّ لها أثراً في إحداث الظلمة، وذلك لا يتحقق إلا بافتراض أنَّ الشمس مشرقة، إذ يخترق بعض أشعتها السَّحاب.

أمَّا في الليل فإِنَّ السُّحُب كافية في إحداث الظلمة، إذ تحجب النُّجوم، وعندها تستوي الظلمة فوق البحر وداخله، ولا حاجة لذكر الحُجُب الأخرى. ولكن يُناسب ذلك مع وجود بعض الضوء الذي تسرَّبَ من السَّحاب - والشمس مشرقة - إذ يبرز أثر تلك الحجب في حجب ذلك الضوء النافذ عن قاع البحر.[1]

﴿كَظُلُمَاتٍ﴾: «مثل لقلب الكافر أي إنه يعقل ولا يبصر». قاله الفرَّاء.[2]

وقيل: «الظُّلُمَاتِ: أعماله والبحر هواه ... والموج ما يغشى قلبه من جهل وغفلة والموج الثاني ما يغشاه من شكٍّ وشبهة والسَّحاب ما يغشاه من شرك وحيرة فيمنعه من الاهتداء على عكس ما في مثل نور الدِّين».[3]

(1) ينظر: الأمثال القرآنية القياسية: 2/ 591.

(2) معاني القرآن (للفراء): 3/ 214.

(3) البحر المحيط: 6/ 425.

وقيل: المراد بالظلمات: الشدائد أي شدائد بعضها فوق بعض.[1]

﴿ يَغْشَـٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ﴾: تصوير لحال المعرض عن وحيه. فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنهم أمواج بعضها فوق بعض. والضمير الأول قوله: ﴿يَغْشَاهُ﴾ راجع إلى البحر والضمير الثاني في قوله: ﴿من فَوْقِهِ﴾ عائد إلى الموج. ثم إنَّ تلك الأمواج مغشاة بسحاب. فها هنا ظلمات: ظلمة البحر اللّجي وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله.[2]

﴿ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ((... يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهو كقوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة:7]، وكقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:23])).[3]

وفسَّرها قتادة بقوله: «هذا مثل عمل الكافر ضلالات متسكع فيها لا يهتدي».[4]

وعن السُّدي قال: «الظلمات ثلاث ظلمات: ظلمة الليل وظلمة البحر، وظلمة السَّحاب، وكذلك قلب الكافر ثلاث ظلمات: ظلمة القلب، وظلمة الصَّدر وظلمة الجوف، كما ضرب مثل قلوب المؤمنين».[5]

(1) الجامع لأحكام القرآن: 12/ 285.

(2) محاسن التأويل تفسير القاسمي: 7/ 396.

(3) أورده الطبري في تفسيره جامع البيان: 19/ 198.

(4) أورده ابن أبي حاتم في تفسيره: 8/ 2615، برقم: (14691).

(5) أورده ابن أبي حاتم في تفسيره: 8/ 2615، برقم: (14690).

وفسَّرها ابن زيد بقوله: «شرّ بعضه فوق بعض».(1)

وقال الزجاج بمعنى: «ظلمة البحر وظلمة الموج الذي فوق الموج، وظلمة الليل».(2)

فهي جملة استئنافيَّة «والتقدير: هي ظلمات، والمراد بالظلمات التي هنا غير المراد بقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾؛ لأنَّ الجمع هنا جمع أنواع وهنالك جمع أفراد من نوع واحد».(3)

عن أُبيِّ بن كعب ﷺ قال: ((... وضرب مثلاً آخر للكافر فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فهو ينقله في خمس من الظلم فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة ومدخلة ظلمة، ومخرجة ظلمة، ومصيره إلى الظلمات إلى النار يوم القيامة)).(4) وقال الربيع بن أنس، والسُّدِّي نحو ذلك أيضاً.(5)

والالتفاتة هنا تعني أنَّ هؤلاء الكفار مغمورون في بحار الكفر والضلال والفساد، ممَّا أظلم عليهم طريق النَّجاة، فهم في عمى تام وأنهم بسبب هذه الظلمة، وما يُحيط بهم ويغشاهم من العقائد الباطلة، وأمواج الشكوك والرَّيب، وتيارات الشهوات الفاسدة والإرادات الخبيثة، والأفكار والنظريات المنحرفة، في خوف وفزع وقلق وحيرة من أمرهم.

(1) أورده الطبري في تفسيره جامع البيان: 19/ 198.

(2) معاني القرآن وإعرابه (للزجاج): 4/ 38.

(3) التحرير والتنوير: 18/ 256.

(4) المستدرك على الصحيحين للحاكم: رقم الحديث: (3510): 2/ 434. قال عنه الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه». وللذهبي في التلخيص أنه: صحيح.

(5) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم: 8/ 2614- 2615، تفسير القرآن العظيم: 6/ 71.

قال المفسِّرون: «أراد بالظلمات أعمال الكافر، وبالبحر اللجّي قلبه، وبالموج ما يغشى قلبه من الجهل والشكِّ والحيرة وبالسَّحاب الرَّين والختم والطبع على قلبه».[1]

وهذه حال الكفار في الحياة الدنيا، وهي ناتجة عن إعراضهم عن ذكر ربه وتوغلهم في الشرِّ والفساد.[2] حتى تراكمت عليهم ظلمة الشرك والضلال وفساد الأعمال. وهذا دليلٌ على «أنه ليس لهم حجة في شيء ممَّا جاء به مُحمَّد، بل ما جاء به حجَّة عليهم».[3] .. فشبه الله تعالى أعمالهم بما يلي:

أولاً: في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً، ولم يكفه خيبة وكمداً إن لم يجد شيئاً كغيره من السَّراب، حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار، ولا يقتل ظمأه بالماء.

وشبهها ثانياً: في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة، وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لجّ البحر والأمواج والسّحاب: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾: من لم يهده الله لم يهتد.[4] وفي كيفية هذا التشبيه وجوه:

الأول: قال الحسن: «إنَّ الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر، وظلمة الأمواج، وظلمة السَّحاب، كذا الكافر له ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول وظلمة العمل».

الثاني: قال ابن عباس: ((شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات الثلاث)).

الثالث: إنَّ الكافر لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، ويعتقد أنه يدري، فهذه المراتب الثلاثة تشبه تلك الظلمات الثلاث.

---

(1) الكشف والبيان: 7/ 111.

(2) ينظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: 3/ 576.

(3) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: 2/ 220.

(4) الكشاف عن حقائق التنزيل: 3/ 249، تفسير النسفي: 3/ 123.

الرابع: قلب مظلم في صدر مظلم في جسد مظلم.

الخامس: إنَّ هذه الظلمات متراكمة، فكذا الكافر لشدة إصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى لو ذكر عنده أظهر الدَّلائل لم يفهمه.[1] فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير.[2]

وهذا ممَّا لا ريب فيه أنَّ الاعتقادات الفاسدة مثل اعتقاد الكفار في ربهم وما يتبعها من الإرادات هي خيالات باطلة وأوهام باطلة.[3]

فهذا تشبيهٌ في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج الذي قد غشيه السحاب من فوقه. فياله تشبيهًا ما أبدعه!! وأشد مطابقته بحال أهل البدع والضلال وحال من عبد الله سبحانه وتعالى على خلاف ما بعث به رسوله وأنزل به كتابه وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم فهي سراب لا حاصل لها وظلمات لا نور فيها وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه التي تلقاها من مشكاة النبوة فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة.[4]

(1) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم: 8/ 2613- 2615، اللباب في علوم الكتاب: 14/ 408.

(2) الدر المنثور: 6/ 211.

(3) ينظر: بيان تلبيس الجهمية: 1/ 70.

(4) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية: 20.

قال ابو حيان: «ومنهم من لاحظ التقابل فقال: الظلمات الأعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة. والبحر اللجيّ صدر الكافر وقلبه والموج الضلال والجهالة التي غمرت قلبه والفكر المعوجة والسحاب شهوته في الكفر وإعراضه عن الإيمان».[1]

قوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾. الضمير في قوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ﴾ يعود إلى مذكور حذف اعتماداً على المعنى تقديره إذا أخرج من فيها يده.[2]

وهذا يدلُّ على تقدير وجود شخص كائنٍ في قاع البحر المظلم – والعلم الحديث يؤكد ذلك من خلال نزول الإنسان في الغواصة كما سأذكر ذلك لاحقاً- إذ إنَّ «فاعل أخرج ضمير يعود على مقدر ، دلَّ عليه المقام: أي إذا أخرج الحاضر في هذه الظلمات أو من ابتُلِيَ بها».[3] فضلاً عن الاستفادة من وصف الظلمة وشدة سوادها، وهو إِفادة عدم قدرة مَنْ كان فيها على الإبصار والاهتداء إلى طريق النَّجاة.

و «الواقع في قعر هذا البحر اللجيِّ يكون في نهاية شدة الظلمة ولَمَّا كانت العادة في اليد أنها من أقرب ما يراها ومن أبعد ما يظنُّ أنه لا يراها، فقال تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ وبيَّنَ سبحانه بهذا البلوغ تلك الظلمة إلى أقصى النهايات، ثمَّ شبه به الكافر في اعتقاده وهو ضد المؤمن».[4]

هذا وقد اختلف المفسِّرون واللغويّون في المراد بقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾، ومرد أقوالهم إلى ما يلي:

(1) البحر المحيط: 6/ 425.

(2) ينظر: البحر المحيط: 6/ 424.

(3) فتح القدير : 4/ 58.

(4) تفسير الرازي: 24/ 8.

القول الأوَّل: لم يرها ولم يكد، أي لم يقرب من رؤيتها. فإذا لم يُقارب رؤيتها فهو من أن يراها أبعد وذلك من شدة الظلمة.[1] وعنه قال الطبري: «قول أوضح من جهة التفسير، وهو أخفى معانيه. وإنما حسُن ذلك في هذا الموضع، أعني أن يقول: لم يكد يراها مع شدة الظلمة التي ذكر؛ لأنَّ ذلك مثل لا خبر عن كائن كان».[2]

ورجَّحه أيضاً النّحاس بقوله: «أصح الأقوال في هذا أنَّ المعنى لم يُقارب رؤيتها ، وإذا لم يُقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة».[3]

القول الثاني: أن يكون يراها ولكن بعد بطء وجهد ومشقة. أي أنه يراها بعد أن يُقارب ألا يراها.

قال المبرد: «يعني لم يرها إلا بعد الجهد، كما يقول القائل: ما كدت أراك من الظلمة وقد رآه، ولكن بعد يأس وشدة. وقيل: معناه قرب من رؤيتها ولم يرها، كما يُقال: كاد النعام يطير».[4]

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: 19/ 198، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/ 606، تفسير البيضاوي: 1/ 193، تفسير البغوي: 6/ 53، فتح القدير: 4/ 58، تفسير الماوردي: 4/ 111.

قال ذو الرمَّة:

إذا غَيَّرَ النَّأْيُ المُحِبِّينَ لَمْ يَكَدْ ... رَسِيسُ الهَوَى مِنْ حُبّ مَيَّةَ يَبْرَحُ.

تفسير الطبري: 18/ 289.

وبيَّنَ الأستراباذي: بأنَّ معنى لم يكد: لم يقرب وأنَّ نفي مقاربة الشيء أبلغ من نفي الشيء. وقد أبطل الرَّضي زعم من زعم من النحاة أنَّ: نفي كاد إثبات وأنَّ إثباته نفي. ينظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب: 4/ 224.

(2) تفسير الطبري: 19 / 199.

(3) معاني القرآن الكريم (للنحاس): 4/ 542.

(4) أورده البغوي في تفسيره: 6/ 53.

وعن هذا القول – الثاني – قال الطبري: «وهذا ... أظهر معاني الكلمة من جهة ما تستعمل العرب أكاد في كلامها».[1]

القول الثالث: بمعنى: لا يراها .[2] قال الفرَّاء: «وهو المعنى؛ لأنَّ أقلَّ من الظلمات التي وصفها الله لا يَرَى فيها الناظر كفّه».[3]

والرَّاجح هو القول الأوَّل لما له من اتفاق مع معنى كاد الذي يُفيد المقاربة، ومع الأسلوب الدَّال على نفي مقاربة الرُّؤية من خلال قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ وهو المعنى المتفق مع سياق التأكيد على عدم قدرة الكائن على رؤية يده ؛ لشدة ظلام المكان وإطباقه ممَّا يدلّ على عجزه وعدم قدرته على الاهتداء إلى طريق السَّعادة والفلاح والفكاك عن ذلك المكان المظلم المخوِّف المفزع قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. وهذا إثبات لفعل الله سبحانه وتعالى وحده، فقد «أعلم تعالى عباده أنَّ النور له وبيده ، فمن لم يطلبه منه حرمه وعاش في الظلمات والعياذ بالله».[4]

فهي جملة احتوت الخلاصة والتأكيد على المعنى الذي دلَّ عليه المثل، والمعنى الذي دلَّ عليه السِّياق .. ولكن ما المراد من هذا اللفظ؟ اختلف المفسِّرون على رأيين:

أحدهما: أراد في الدّنيا، أي: من لم يهده الله في الدنيا لم يهتدِ.

ثانيهما: أراد في الآخرة، أي: من لم يرحمه الله وينوّر حاله بالعفو والرَّحمة فلا رحمة له.[5]

---

(1) تفسير الطبري: 19/ 199.

(2) ينظر: معاني القرآن (للفراء): 3/ 214.

(3) ينظر: المصدر نفسه.

(4) أيسر التفاسير: 3/ 576.

(5) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 231، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/ 124.

ورجَّحَ ابنُ عطية قائلاً: «والأوّل أبين وأليق بلفظ الآية وأيضاً فذلك لازم نور الآخرة إنما هو لمن نور قلبه في الدنيا وهدى وقد قرَّرت الشريعة أنَّ من مرَّ لآخرته على كفره فهو غير مرحوم ولا مغفور له».[1]

قال العلماء: «إنه تعالى لمَّا وصف هداية المؤمن بأنها في نهاية الجلاء والظهور عقبها بأن قال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:35] ولمَّا وصف ضلالة الكافر بأنها في نهاية الظلمة عقبه بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. والمراد من ذلك أن يعرف الإنسان أنَّ ظهور الدَّلائل لا يفيد الإيمان، وظلمة الطريق لا تمنع منه فإنَّ الكلَّ مربوط بخلق الله وهدايته وتكوينه».[2]

فهي جملة «مقرّرة لما قبلها من كون أعمال الكافر على تلك الصِّفة. والمعنى: ومن لم يجعل الله له هداية فما له من هداية».[3]

ووصف ابن عباس المعنى بقوله: ((من لم يجعل الله له ديناً وإيماناً فلا دينَ له)).[4]
وقيل: من لم يهده الله فلا إيمان له ولا يهديه أحد.[5]

وقال الطبري: «من لم يرزقه الله إيماناً وهدىً من الضلالة ومعرفةً بكتابه، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾: فما له من إيمان وهدى ومعرفة بكتابه».[6] «ومن لم يُقدر له الهداية لم يوفقه لأسبابها».[7]

(1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 231.

(2) اللباب في علوم الكتاب: 14/ 408- 409.

(3) فتح القدير: 4/ 58 .

(4) تفسير البغوي: 6/ 53 .

(5) المصدر نفسه.

(6) تفسير الطبري: 19/ 199.

(7) تفسير البيضاوي: 1/ 193.

فمن لم ينوِّر الله تعالى قلبه بنوره، ويهديه إليه ، فهو باقٍ في ظلمات الكفر والجهل والضلال لا يهتدي أبداً. وكيف يهتدي، وهو لا يملك شيئاً من النور، الذي هو سبب الهداية؟

ولتأكيد هذا المعنى جيء بعد ﴿فَمَا﴾ النافية بـ﴿ مِنْ ﴾ التي يدلّ وجودها على استغراق النفي وشموله لكلِّ جزء من أجزاء النور ولو قيل: (فَمَا لَهُ نور)، بدون ﴿مِنْ﴾ ما أفاد هذا المعنى، الذي دلَّ عليه وجودها.

إذن هذه خاتمة لما سبق مفادها أنَّ الكائن في ذلك المكان لم يصله نورٌ أصلاً، وأنه لا يُمكن له أن يهتديَ إلى بصيص نورٍ، ما دامت تلك الحُجُب أمامه، فكذلك الكافر ما دام بقائهم على تلك الصِّفة من الضلال والضياع والتكذيب والإعراض عمَّا أنزله الله تعالى .. فلا هداية له إلا بإذنه سبحانه، فهو بعيد كلَّ البعد عن مصدر النُّور والهدى .. فأنىَّ له الفكاك ممَّا هو فيه؟

ومن أين له نور يهتدي به؟ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

.. وفي ختام هذا المبحث يمكنني التطرُّق إلى الإيقاع النَّغمي لهذه الآية، كي نرهف أسماعنا إلى ما يبدو من تلك النَّغمات، وهي نغمات تشعرك بالحدة، والحسم، وسرعة اللهجة وعلو الصَّوت، وكأنها أمور لا تحتمل النقاش أو التأجيل، أو النَّظر، وهذا يصب في دائرة الإلزام في تحسين أعمال الكفار ورجوعهم إلى خالقهم الواحد القهار فالقضية متعلقة بالعقيدة، وهي قضيَّة لا تهاون فيها، لذا كانت النَّبرة عالية وسريعة.

فمن حيث الحروف: فإنَّ الحروف الأربعة: (ظ، ل ، م ، ا ، ت) في لفظ ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ هي النَّغمة الشائعة في الآية.

واسمع إلى ذلك مع مراعاة النَّظير: ﴿كَظُلُمَاتٍ﴾، ﴿يَغْشَاهُ﴾، ﴿سَحَابٌ﴾، ﴿ظُلُمَاتٌ﴾، ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾، ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ فهي نغمة لا تكاد تنقطع عن الأُذن، ولا ينفكّ القارئ منها حتى ينتهي من الآية، وهي نغمة موزعة في جنبات الآية من أوّلها إلى آخرها؛ فلا يكاد القارئ يسمعها إلا وتعاوده مرَّة أخرى؛ لتشيع هذا الجو المفزع والمخيف، الموجود في دلالتها.

كما أنَّك في الوقت نفسه تجد أنَّ لتلك الكلمات امتدادات صوتية، ممَّا يُشعرك بالحسم والقطع، وهو الشائع في القرآن الكريم ولاسيِّما ختمُ الآيات والجمل فتكون بكلمةٍ فيها حرف مد في الآخر، أو قبل الآخر كما جاء في الآية قوله: ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ وهذا الامتداد الصوتي له وقع نغمي ممتد، وكلٌّ نغمة تناسب الغرض الذي سيقت من أجله .. تلك نهاية الآية، وهي بلا شكٍّ تتوافق مع غرضها العام الدَّاعي إلى نور العلم وحفظه، وأخذه من القرآن والسّنَّة، وتوعُّد مخالفهما.

إذن جُمع مع الكلمة الأم، وهي كلمة ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ جُمعَ معها بعض الألفاظ التي تمُتُّ بالصِّلة إلى أسرتها الدَّلالية كما سبق. وكلها ذات وشائج، وروابط لا تخفى، إذ جاءت لتضيف إلى الإعجاز قوَّة وتأصيلاً، ولكي تستنهض همم العلماء.

أهمُّ نتائج البحث

وبعد تلكم الجولة المتواضعة الماتعة في ظِلِّ كتاب الله تعالى، ومحاولة فهم إعجازه في ضرب المَثَل، أخلص إلى ما يلي:

1- جمع الله جلَّ وعلا الوصف بينَ تراكب الأمواج في البحر بعضها فوق بعض، وبين السَّحاب المتراكم وهذا أشدُّ ما يكون من الظلمات .. وهنا نُدرك دقة القرآن حتى في تشبيهاته، فالله تعالى يقول لنا بأنَّ الكافر بربه والذي ضلَّ عن سبيل الهدى مثله كمثل رجل يعيش تحت هذه الأمواج العميقة، قمَّة الظلام والضيق، فهو تشبيهٌ للضلال بهذه الظلمات.

2- جمعت هذه الآية الكريمة أهمَّ ظواهر عواصف المحيطات العظيمة . وهذا من أكبرِ الأدلة على أنَّ القرآن من عند الله وحده؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ لم يركب المحيطاتِ، وكان يعيش في بلاد صحراوية.

فورودُ هذه الدَّقائق العلميَّة دليلٌ على أنَّها وحيٌ من عند الله جلَّ وعلا، إذ إنَّ هذه الحقيقة من علم اللهَّ الغيبي - حيث لم يكن الناس يعلمونها عند نزول القرآن-. وإنَّ مثل هذه الحقيقة التي يطرحها القرآن والتي أريد منها، أن تكون شاهداً تقود الإنسان إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له.

3- إنَّ القرآن دقيقٌ في تعابيره وفي ترتيب كلماته .. وإذا ما أنعمنا النَّظر في سياق قوله تعالى: ﴿**يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ**﴾ وجدنا أنَّ كلمة ﴿فَوْقِهِ﴾ لا تدلُّ بالضرورة على الملاصقة بين الموجين، بل قد يكون بينهما مسافة بعيدة، وذلك بدليل قوله: ﴿**مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ**﴾ ومعلومٌ أنَّ المسافة بين الموج الثاني والسَّحاب بعيدة. وقد يكون كذلك الحال بين الموج الباطني، والموج السَّطحي.

4- إنَّ تسمية هذه الحُجُب ظلمة ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ إنما هو باعتبار أنها مسببة لها. والسِّياق يدلُّ على أنَّ الظلمة لم تحدث من شيءٍ واحدٍ، وإنما ساهمت هذه العوامل مجتمعة في تكوينها واستحكامها. وهذا المعنى تماماً هو ما يُقرِّرهُ قانون انعكاس الضوء وانكساره عند مروره في الأوساط المختلفة.

5- قوله تعالى ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فيه إشارة علميَّة يُفصِّلها القرآن الكريم بدقةٍ متناهية . فمن لم ينوِّر الله تعالى قلبه بنوره، ويهديه إليه، فهو باقٍ في ظلمات الكفر والجهل والضلال لا يهتدي أبداً. ولتأكيد هذا المعنى جيء بعد (مَا) النافية بـــ(مِن) التي يدلُّ وجودها على استغراق النَّفي وشموله لكلِّ جزءٍ من أجزاء النور. ولو قيل: فَمَا لَهُ نور، بدون (مِن)، ما أفاد هذا المعنى الذي دلَّ عليه وجودها.

6- إنَّ اعتبار الزمان نهارًا هو الأنسب لصورة الظلام – خلافاً لبعض المفسِّرين–، وأنَّ ذلك أبلغ – من حيث الإعجاز النَّصِّي- في إفادة شدة الظلمة، إذ إنَّ الظلمة اللازمة التي لا تتأثر بليل ولا بنهار أشدّ وأعظم من الظلمة الطارئة المتأثرة بالشمس، ممَّا يُفيد – إعجازًا- في بيان أنَّ الضالَّ إنما هو بسبب بُعده عن مصدر النور ووجود تلك الحُجُب وليس انعدام مصدر النور. فضلاً عن أنَّ التفصيل في ذكر الحُجُب، وتسميتها ظلمات يدلُّ على أنَّ لها أثراً في إحداث الظلمة، وذلك لا يتحقق إلا بافتراض أنَّ الشمس مشرقة، حيث يخترق بعض أشعتها السَّحاب، والعلم الحديث قد اكتشف ذلك.

7- إنَّ كلمة ﴿مَوْجٌ﴾ تشير إلى أنَّها كلمة سارية في أوصال الآية ومقرّرة بعدة صور؛ لتملأ على الجميع حواسهم فلا تغيب عنهم، وفي ذلك ما فيه من إثارة النفوس إلى حفظ الإنسان لعمله.

ثبت المصادر والمراجع

1) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: للبنَّا الدمياطي (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني ت1117هـ)، تح. أنس مهرة، ط1 دار الكتب العلميَّة ـ بيروت / لبنان 1419هـ – 1998م.

2) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية: للإمام ابن القيم (محمد بن ابي بكر أيوب الزرعي)، ط1 دار الكتب العلمية – بيروت 1404هـ – 1984م.

3) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: للشوكاني (محمد بن علي بن محمد ت1250هـ)، تح. أحمد عزو، ط1 دار الكتاب العربي 1419هـ – 1999م.

4) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: للإمام ابن القيم (محمد بن ابي بكر أيوب الزرعي ت751هـ)، تح. طه عبد الرؤوف، ط دار الجيل – بيروت 1973م.

5) الأمثال في القرآن الكريم: للإمام ابن القيم (محمد بن ابي بكر أيوب الزرعي)، تح. ابراهيم محمد، ط1 مكتبة الصحابة – طنطا / القاهرة 1406هـ– 1986م.

6) الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للركن الأول من أركان الإيمان السّتة (الإيمان بالله): عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، ط1 عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية – المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية 1424ه–2003م.

7) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين: لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، ط دار الفكر – دمشق.

8) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: لأبي بكر الجزائري (جابر بن موسى بن عبد القادر)، ط5 مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة/ المملكة العربية السّعودية 1424هـ - 2003م .

9) بحر العلوم: للسمرقندي (ابو الليث نصر بن محمد بن ابراهيم)، تح. د. محمود مطرجي، ط دار الفكر - بيروت.

10) البحر المحيط: لأبي حيان (محمد بن يوسف الأندلسي ت754هـ)، تح. عادل أحمد عبد الموجود، وزملاءه، ط1 دار الكتب العلمية - بيروت 1422هـ - 2001م.

11) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: للإمام ابن تيمية (ابو العباس أحمد بن عبد الحليم ت728هـ)، تح. محمد بن عبد الرحمن قاسم، ط1 الحكومة – مكة المكرمة / المملكة العربية السعودية 1392هـ.

12) التبيان في تفسير غريب القرآن: شهاب الدين أحمد المصري، تح. د. فتحي أنور الدابولي، ط1 دار الصحابة - طنطا/ القاهرة 1992م.

13) تحبير التيسير في القراءات العشر: للإمام ابن الجزري (شمس الدِّين محمد بن محمد بن علي -833هـ)، تح. د. أحمد محمد مفلح القضاة، ط1 دار الفرقان – عَمَّان / الأردن 1421هـ - 2000م.

14) التحبير شرح التحرير في أصول الفقه: للمرداوي (علاء الدين علي بن سليمان الحنبلي ت 885هـ)، تح. د. عبد الرحمن الجبرين، وزملائه، ط مكتبة الرشيد _ الرياض / المملكة العربية السعودية 1421هـ - 2000م.

15) التحرير والتنوير، المعروف بـ(تفسير ابن عاشور): محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت1393هـ)، ط1 مؤسسة التاريخ العربي - بيروت / لبنان 1420هـ - 2000م.

16) التعريفات: للجرجاني (علي بن محمد بن علي)، تح. ابراهيم الأبياري، ط1 دار الكتاب العربي – بيروت / لبنان 1405هـ.

17) تفسير البغوي، المسمى بـ (معالم التنزيل): للبغوي (الحسين بن مسعود البغوي ت510هـ)، تح. محمد عبد الله النمر، وزملائه، ط4 دار طيبة للنشر والتوزيع 1417هـ - 1997م.

18) تفسير البيضاوي، والمسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): للقاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت791هـ)، ط1 دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان 1408هـ - 1988م.

19) تفسير ابن أبى حاتم: للحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرَّازي (ت327هـ)، تح. أسعد الطيب، ط المكتبة العصرية - صيدا / لبنان.

20) تفسير الرازي، المسمى بـ(مفاتيح الغيب): للفخر الرازي (فخر الدّين محمد بن عمر التميمي ت606هـ)، ط1دار الكتب العلمية- بيروت / لبنان 1421هـ- 2000م.

21) تفسير السراج المنير: للشربيني (محمد بن أحمد)، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان.

22) تفسير ابي السعود، (إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم): للعمادي (ابو السعود محمد بن محمد ت982هـ)، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت / لبنان.

23) تفسير السمعاني، (تفسير القرآن): لابي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السّمعاني (ت489هـ)، تح. ياسر بن إبراهيم، غنيم بن عباس، ط دار الوطن – الرِّياض / المملكة العربية السّعودية 1418هـ - 1997م.

24) تفسير الطبري، (جامع البيان في تأويل القرآن): للإمام محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تح. أحمد محمد شاكر، ط1 مؤسسة الرسالة 1420هـ - 2000م.

25) تفسير القرآن العظيم: للحافظ ابن كثير (إسماعيل بن عمر بن كثير ت 774هـ)، تح. سامي سلامة، ط2 دار طيبة للنشر والتوزيع1420هـ - 1999م.

26) تفسير الماوردي، المسمى بـ(النكت والعيون): للماوردي (علي بن محمد بن حبيب البصري)، تح. السيد بن عبد المقصود، ط دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان

27) تفسير النسفي، المسمّى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت710هـ)، تح. مروان الشعار، ط دار النفائس – بيروت لبنان 2005م.

28) تقريب التهذيب: للحافظ ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت 852هـ)، تح. محمد عوامة ، ط دار الرشيد – دمشق / سورية 1406هـ – 1986م.

29) تهذيب الكمال: للمزي (يوسف بن الزكي عبدالرحمن المزي ت هـ)، تح. د. بشار عواد معروف، ط1 مؤسسة الرِّسالة – بيروت / لبنان 1400هـ – 1980م .

30) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك: للمرادي (بدر الدِّين حسن بن قاسم المرادي المصري ت 749هـ)، تح. عبد الرحمن علي سليمان، ط1 دار الفكر العربي 1428هـ – 2008م.

31) التوقيف على مهمّات التعاريف: للمناوي (محمد عبد الرؤوف)، تح. د. محمد الداية، ط1 دار الفكر المعاصر، دار الفكر – بيروت دمشق1410هـ.

32) التيسير في القراءات السَّبع: للداني (أبو عمرو عثمان بن سعيد الدَّاني ت444هـ)، ط2 دار الكتاب العربي – بيروت/ لبنان 1404هـ – 1984م.

33) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي (محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري ت671هـ)، تح. هشام البخاري، ط دار عالم الكتب – الرِّياض / المملكة العربية السُّعودية 1423هـ – 2003م.

34) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد، تح. حسن هاني فحص، ط1 دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان 1421 هـ – 2000م.

35) جغرافية البحار: د. عبد العزيز طريح شرف، ط مؤسسة شباب الجامعة – اسكندريَّة / مصر 1995م.

36) الجواب الصَّحيح لمن بدل دين المسيح: للإمام ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ت827هـ)، تح. د.علي حسن ناصر، وزملائه، ط1 دار العاصمة – الرِّياض / المملكة العربية السعودية 1414هـ.

37) الجواهر الحسان في تفسير القرآن: للثعالبي (عبد الحمن بن محمد بن مخلوف ت هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت / لبنان.

38) الحجة في القراءات السَّبع: لابن خالويه (ابو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه ت370هـ)، تح. د. عبد العال سالم مكرم، ط4 دار الشروق – بيروت / لبنان 1401هـ.

39) حجّة القراءات: لابن زنجلة (ابو زرعة عبد الرحمن بن زنجلة)، تح. سعيد الأفغاني، ط مؤسسة الرّسالة -بيروت 1402هـ- 1982م.

40) درء تعارض العقل والنقل: للإمام ابن تيميَّة (أحمد بن عبد الحليم الحراني ت 727هـ)، تح. محمد رشاد سالم، ط دار الكنوز الأدبية - الرِّياض / المملكة العربية السُّعودية 1391هـ.

41) الدر المصون في علم الكتاب المكنون: للسمين الحلبي (أحمد بن يوسف بن عبد الدائم ت756هـ)، تح. أحمد محمد خراط.

42) الدر المنثور: للسيوطي (عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين ت911هـ)، ط دار الفكر – بيروت / لبنان 1993م.

43) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني: للآلوسي (ابو الثناء محمود بن عبد الله الآلوسي ت1270هـ)، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت.

44) السبعة في القراءات: لابن مجاهد (أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي ت 324هـ)، تح. د. شوقي ضيف، ط2 دار المعارف – القاهرة / مصر 1400هـ.

45) سنن الترمذي، المسمَّى (الجامع الصّحيح): للترمذي (ابو عيسى محمد بن عيسى ت 279هـ) تح. أحمد محمد شاكر وزملائه، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها ط دار إحياء التراث العربي – بيروت / لبنان.

46) السنن الكبرى: للبيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي ت458هـ)، ط1 مجلس دائرة المعارف النظامية – حيدر آباد / الهند1344هـ.

47) سير أعلام النبلاء: للإمام الذهبي، تح. شعيب الأرناؤوط، ط9 مؤسسة الرِّسالة – بيروت / لبنان 1413هـ – 1993م.

48) شرح الكافية في النحو: للرضي الاستراباذي، صححه وعلق عليه: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة بنغازي (د.ط.ت).

49) شرح ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري، تح. محمد محيي الدِّين عبد الحميد، ط2 دار الفكر – دمشق / سورية 1985م.

50) الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية: للجوهري (إسماعيل بن حماد الجوهري ت393هـ)، تح. أحمد عبد الغفور عطار، ط4 دار العلم للملايين – بيروت / لبنان 1407هـ – 1987م.

51) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت354هـ)، تح. شعيب الأرناؤوط، ط2 مؤسسة الرِّسالة – بيروت / لبنان 1414هـ – 1993م.

52) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: للإمام ابن القيّم (محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ت751هـ)، تح. د. علي بن محمد الدّخيل الله، ط3 دار العاصمة – الرِّياض / المملكة العربية السعودية 1418هـ – 1998م.

53) غريب الحديث: لابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد)، تح. د. عبد المعطي أمين قلعجي، ط1 دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان 1985م.

54) فتح الباري شرح صحيح البخاري: للحافظ ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني ت852هـ)، ط دار المعرفة - بيروت / لبنان 1379هـ.

55) فتح القدير الجامع بين فني الرّواية والدِّراية من علم التفسير: للشوكاني (محمد بن علي الشوكاني ت1250هـ)، ط1 دار الخير – دمشق 1412هـ – 1991م.

56) الفريد في إعراب القرآن المجيد: للحافظ المنتجب الهمذاني (ت643هـ)، تح. محمد نظام الدِّين الفتيح، ط1 دار الزمان – المدينة المنورة 1427هـ .

57) الفيزياء العامَّة والتجريبيَّة (الضوء): بيير فلوري، جان بول ماتيو، ترجمه: وجيه السّمّان وتوفيق المنجد وطاهر التربدار، ط1 جامعة دمشق 1394 هـ .

58) الفيزياء العامَّة والتطبيقية: أ. محمد بشير مكي، ط جامعة حلب – حلب / سورية 1970م .

59) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي ت538هـ)، تح. عبد الرَّزاق غالب، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت / لبنان.

60) الكشف والبيان: للثعلبي (أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ت 427هـ)، تح. ابن عاشور، ط1 دار إحياء التراث العربي- بيروت / لبنان 1422هـ – 2002م.

61) اللباب في علوم الكتاب: لابن عادل الحنبلي (عمر بن علي ابن عادل الدمشقي)، تح. عادل أحمد عبد الموجود، وزملائه، ط1 دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان 1419هـ– 1998م.

62) لسان العرب: لابن منظور (محمد بن مكرم المصري)، ط1 دار صادر – بيروت / لبنان.

63) مجموع الفتاوى: للإمام ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني ت 728هـ)، تح. أنور الباز، عامر الجزار، ط3 دار الوفاء 1426هـ - 2005م.

64) محاسن التأويل: محمد جمال الدّين (ت1332هـ)، ط1 عيسى الحلبي 1376هـ- 1957م.

65) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي ت546هـ)، تح. عبد السلام عبد الشافي، ط1 دار الكتب العلمية بيروت / لبنان 1413هـ - 1993م.

66) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: للإمام ابن القيم (محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ت751هـ)، تح. محمد الفقي، ط2 دار الكتاب العربي – بيروت / لبنان 1393هـ - 1973م.

67) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: للمباركفوري (عبيد الله بن محمد الرحماني ت 1414هـ)، ط3 الجامعة السلفية - بنارس/ الهند 1404هـ - 1984م.

68) المستدرك على الصّحيحين: للحاكم النيسابوري (محمد بن عبد الله)، تح. مصطفى عبد القادر عطا، ط1 دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان1411هـ - 1990م.

69) معاني القرآن: للفراء (ابو زكريا يحيى بن زياد ت207هـ)، ط3 عالم الكتب – بيروت / لبنان 1403هـ - 1983م.

70) معاني القرآن الكريم: للنحاس (أحمد بن محمد ت 338هـ)، تح. محمد علي الصابوني، ط1 جامعة أم القرى - مكة المكرَّمة 1409هـ.

71) معاني القرآن وإعرابه: للزجاج (ابو اسحاق ابراهيم بن السريّ ت 311هـ)، تح. د. عبد الجليل شلبي، ط دار الحديث – القاهرة 1424هـ - 2004م.

72) المعجزة القرآنية (الإعجاز العلمي والغيبي): محمد حسن هيتو ، ط2 دار الرِّسالة - بيروت 1415هـ.

73) المعجم الوسيط: لنخبة من الأساتذة المتخصّصين، تح. مجمع اللغة العربيَّة، ط دار الدَّعوة.

74) مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني (حسين بن محمد بن المفضل)، ط دار القلم - دمشق / سورية .

75) المفردات في غريب القرآن: لأبي قاسم حسين بن محمد ت 502هـ، تح. محمد كيلاني، ط دار المعرفة – لبنان.

76) المناظر: للحسن بن الهيثم (ت432هـ)، تح. عبد الحميد صبره، ط1 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / الكويت 1983م.

77) من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم (في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية): د. حسن ابو العينين، ط2 مكتبة العبيكان – الرياض / المملكة العربية السّعودية 2005م.

78) منهاج السنة النبوية: شيخ الإسلام ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم الحراني ت 728هـ)، تح. د. محمد رشاد سالم، ط1 مؤسسة قرطبة.

79) النحو الوافي: عباس حسن (ت 1398هـ)، ط15 دار المعارف.

80) النَّشر في القراءات العشر: لابن الجزري (شمس الدِّين محمد بن محمد بن علي ت833هـ)، تصحيح : على محمَّد الضبَّاع (ت1376هـ) ط دار الكتب العلميَّة - بيروت / لبنان.

81) نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: للبقاعي (برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر)، تح. عبد الرزاق غالب، ط دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان 1415هـ - 1995م.

82) النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير (أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري)، تح. طاهر أحمد الزاوي، د. محمود محمد الطناحي، ط عيسى الحلبي وأولاده – مصر.